

تسمية الأماكن واللغة: جولة داخل التعدد اللغوي للجزائر العاصمة، لافتات شوارع مدينتنا¹

خولة طالب الإبراهيمي⁽¹⁾

لقد قادنا البحث في ممارسات المتكلمين الجزائريين الفعلية -منذ زمن طويل- إلى الاهتمام بعلاقات هذه الممارسات في الجزائر العاصمة وهي بيئتنا الحضرية المألوفة والمدينة التي وُلدنا ونشأنا بها. إن فكرة تحرير مقال عن ما يكتب على جدران العاصمة نشأت حين كنا نصوغ آخر فصول مقال عن "منطوق الشباب العاصمي"، وذلك إسهاماً متاً في عدد من أعداد مجلة التعدد اللغوي (Plurilinguismes) المخصص للتعددية اللغوية في الجزائر العاصمة². ومنذ ذلك الوقت، اتضحت رؤيتنا واتجهت بشكل خاص إلى أسماء المحلات التجارية في الجزائر العاصمة، ونقصد بذلك إثراء هذا العدد ونطمح إلى فتح مجال التفكير في بناء لسانيات اجتماعية لمحيطنا الحضري في الجزائر.

لماذا اخترنا المدينة؟

ساد نمط التمدن في بداية هذا القرن على مستوى المعمورة، حيث نلاحظ أن "المدينة تنتصب في أفق تاريخنا المعاصر قدراً لا بد منه"³، فالبشر يسكنون أكثر من أي وقت في تكتلات

¹ مقال سبق نشره باللغة الفرنسية في مجلة إنسانيات، العدد 17-18، 2002 بعنوان:

« Entre toponymie et langage, balades dans l'Alger plurilingue. Les enseignes des rues de notre ville ».

⁽¹⁾ أستاذة بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الجزائر.

² Alger Plurilingue in Plurilinguismes, n° 12, 1996, Paris.

³ Voir Calvet, L-J : Les voix de la ville. Introduction à la sociolinguistique urbaine. Payot, Paris, 1994. p. 10.

سكانية هائلة، وهي ظاهرة اجتماعية حقيقية تخفي في طياتها كل التناقضات التي تُشكل عالمنا الحالي، ويصبح المجال الحضري من أماكن الملاحظة المفضلة بالنسبة لباحثي اللغة وعلم اجتماع اللّغة.

ولماذا اخترنا الجزائر العاصمة؟

اخترناها لأننا وُلدنا وترعرعنا فيها، ونعرف كل زواياها وخبايها، وكل الشوارع والأزقة، والنُهج والطرق، أي: إننا نحب هذه المدينة، ونحب التنزه فيها والتجول في أحيائها العتيقة، والوقوف على عدم تناسق أحيائها الجديدة سواء الراقية منها والشعبية، وكثرة البناءات الجديدة من شقق فاخرة ومسكن بئسة مبنية بحجر الأجر تبين أنه حي قصديري عشوائي يعاني التهميش نتيجة عدم وجود ضوابط عمرانية تخصُّه. إنّ الجزائر العاصمة أو التجمع السكاني العاصمي هو فضاء ترحالنا الذي تشكّل بفعل التوافد السكاني، حيث تستقبل العاصمة منذ عقود النازح من بؤس أريافنا، وفي الوقت نفسه هي الحاوية لكل الهجرات الداخلية، كما تشكّل هذا التجمع السكاني من خلال تنوع اللغات التي نتكلمها ومن ضجيجهِ وصخبهِ، وتعدد الرموز التي يدعوننا لقراءتها. ويشير لويس جون كالفي⁴ L-J Calvet إلى أنّ التجمع السكاني مكان الملاحظة المفضل للغوي والسيميائي، "فأما اللغوي فيفضل المدينة لأنها هدف المهاجرين والمستقر الأخير لمسار مُتبع- من القرية إلى العاصمة- عبر ممرات وأودية أو سكك حديدية ومسارات لغوية وغيرها. وأما السيميائي، فيفضل المدينة لأنها تتحدث من خلال عدد من الرموز التي تدعوننا إلى قراءتها، والتي لا نلاحظها غالباً"⁵.

ويمكن أن يكون لتجوالنا في شوارع الجزائر العاصمة طابع اجتماعي لغوي يفتح أمامنا أبواب التعدد اللغوي الثري للمدينة، وطابع سيميائي يعطينا مفاتيح قراءة الكتابات المخطوطة على جدرانها.

لكن لماذا نعتبر -وبصورة قاطعة- أن المجال العاصمي مجال متعدد اللغات؟

إننا في حقيقة الأمر نستيق نتائج بحثنا، فمن يتجول في شوارع مدينتنا ويُبصر ما هو مكتوب على جدرانها ويُولي قليلاً من الاهتمام للافتات محللاتها، يُدرك تنوع العلامات اللغوية

⁴ المرجع السابق، ص. 11.

⁵ المرجع نفسه، ص. 8.

تسمية الأماكن واللغة: جولة داخل التعدد اللغوي للجزائر...

المستعملة في لافتات الأكشاك الكثيرة والتي يُسرّع في إنجازها ويُغير من طبيعة نشاطها وتوسعه حسب تقلبات السوق العاصمي، وتتجلى العلامات اللغوية من العربية إلى الإنجليزية مروراً بالأمازيغية والفرنسية، وأحياناً قد نجدتها بالإيطالية أو الإسبانية وحتى الصينية أو الهندية (لافتات المطاعم في هذا الصدد، جد مُعبّرة)، كلها مؤشرات واضحة تدل على اندماج بلدنا في اقتصاد السوق والعملة.

وفي الوقت نفسه، لا يُعد هذا التعدد اللغوي الظاهر ثمرة سيرورة طبيعية متأنية في تدرجها، بل يعكس فوضى واضطراباً واضحاً وسرعة، يبدو من خلالها أنه يتكيف مع تطلعات كُتابه ومع قُرّائه من الزبائن، ويتغير هذا التعدد اللغوي باستمرار بفعل تيارات متعارضة ومتناقضة، وهذا ما جعل لويس جون كلافّي يرى أن "حقيقة التعدد اللغوي للمدينة نقودنا إلى ثلاثة مواضيع: المدينة عاملاً للتوحيد اللغوي والمدينة مجالاً للصراعات اللغوية والمدينة مجالاً للتعايش والامتزاج اللغوي"⁶.

خلال فترة التجوال في مدينتنا، كان لنا مُتسع من الوقت في ملاحظة هذه الظواهر الثلاث التي تتعاقب وتتداخل ويُقصي بعضها بعضاً في شكل غير متناسق، تبدو مثلها كمثل سيرورة التمدن الذي يُغطي تنظيمًا دائماً في منطقته، ولكنه غير منظم في ظاهره"⁷. إنّ المظهر التعبيري لجدران مدينتنا سيشهد في الواقع استقراراً ظاهراً يكتسب فيه المتلقي-المتجول تصوراً عن الوحدة والتوحيد، تجعل من شوارعنا متماثلة ورمادية ومتسخة، حيث صُممت اللافتات بطريقة تكاد تكون متماثلة مهما كان النشاط التجاري الذي تشير إليه. وكان هذا في خضم فترة توسع الاشتراكية والحزب الواحد المنتصر (نتذكر كلنا "سوق الفلاح" الشهير الذي يحوي "قصبات الشعب" ومتاجر المواد الغذائية التي تعكس -من خلال أحاديّة أسمائها بالعربية أو الفرنسية- وضعا متأزماً كانت البلاد تعيشه). وبعض اللافتات الموروثة عن الاستعمار الفرنسي في سنواته الأخيرة للمدينة بقيت قائمة، وهنا تكمن الفوضى والتناقض. ونذكر بعضاً من الأمثلة التي علّقت في ذاكرة الطفولة: « A fouillis »، محل مستلزمات الخياطة الشهير بشارع ديدوش مراد أو « Prénatal »، اللافتة الشهيرة التي عرفت تألقاً حتى في فرنسا.

⁶ المرجع نفسه، ص. 11.

⁷ أنظر تقديم العدد 16 من مجلة نقد حول الاختلالات الحضريّة، 2002، الجزائر.

فضلا عن ذلك، فإنه "خلال إحدى ليالي أكتوبر 1976، أقدمت بعض الأيدي الخفية التي يحركها تيار التعريب بطلاء الكتابات اللاتينية في المدن بأحرف أخرى، فنتج عن ذلك بعد حين فسيفساء جميلة (فأصبحت قراءة أسماء الشوارع من خلالها مستحيلة...) في واقع ساخر. وفي نهاية سنة تعريب المحيط في الجزائر... تدخلت بالطبع وتكفلت أيادينا الخفية بأمر الخطاب الرسمي وسجلت في الواقع القرارات السياسية الملموسة التي لظالما لم تُنفذ"⁸.

ولخص جون لويس كالفّي في بعض الكلمات التناقض البيّن الذي تُشكله البيئة الخطية لمَدننا إجمالاً، ممثلاً في التناقض بين الإجراءات المتخذة في إطار سياسة بعيدة عن الواقع (in vitro)⁹، هنا يتعلق الأمر بما يسمى بإجراءات تعريب المحيط التي ألزمت تجار المدينة بضرورة تعريب أسماء محلاتهم، فيكونون بذلك بين الامتثال للتعليمة أو عدمه. كما أن الحلول التي سيُوجدونها ضمن منطق المشاركة في وضع سياسة لا تفصح عن اسمها هي سياسة الأمر الواقع¹⁰ (in vivo).

تمكنا إذن من جمع أمثلة غريبة لا تعكس ما دعت إليه هذه الإجراءات المُتسرع في العمل بها، ترجمات تحمل على الهزل نوعاً ما لأسماء قديمة كتبت بالفرنسية -تحديداً- مثل: كلمة "ركام" وهي ترجمة للكلمة الفرنسية الشهيرة fouillis والتي أشرنا إليها أنفاً وأخطاءً إملائية ونحوية لا تُحصى لكثرتها، واختيارات غير مناسبة متعلقة بالمعجمية (نتذكر تلك اللافتة وسط المدينة والتي تمثل اضطراباً يُهزأ به بين كلمة (coiffure) أي حلاقة وبين الكلمة المختارة تحليق، وكذلك نجد تعريب للفرنسية مثل: "أثاث سيليكسيون" أي: بالفرنسية « sélection » والتي تجعل الرسالة غير مفهومة، وهذا ما يمثل تناقضاً تاماً في هذا النوع من الكتابات التي من مهامها الأولى إيصال المعلومة. وأمثلة أخرى شدّت انتباهنا بصفتنا باحثين في علوم اللغة وفي الوقت نفسه استنطقت ضميرنا كوننا ناطقين باللغة الأم، ففي بلوزداد قرأنا هذه اللافتة: "الصابر ينال" على واجهة محل لبيع الملابس، ففضلاً عن التساؤل المشروع حول علاقة الاسم

⁸ Calvet, *op. cit.*, pp. 172-173.

⁹ (in vitro) و (in vivo) هما مصطلحين بيولوجيين، الأول يعني التجربة خارج جسم الإنسان مثل التلقيح الاصطناعي، والثاني يعني التجربة داخل جسم الإنسان أسقطهما المؤلف على واقع ما تنص عليه السياسة الجزائرية التي فرضت على تجار الكتابة باللغة العربية في لافتات محلاتهم وعلى واقع ما يُكتب عليها، حيث تعتبر الأولى بعيدة عن الواقع (خارج) وتعتبر الثانية من الواقع (داخل). المترجم

¹⁰ Calvet, *op. cit.*, pp. 174-175.

تسمية الأماكن واللغة: جولة داخل التعدد اللغوي للجزائر...

مع السبب الاجتماعي للتجارة (ما العلاقة بين الصبر والملابس؟)، أن ما شدّ انتباهنا هو أن هذا النص كتب بالعربية العامية، وحتى وإن كان هذا الفعل غير متكرر في مدونتنا، فإنه من المهم تسجيله، لأنه يسمح لنا بإبراز قدرة سكان مدينة الجزائر على تصور حلول لا تلتزم بالمعايير المفروضة التي تتمثل في إلزامية الكتابة باللغة العربية الفصحى.

وسوف تعرف هذه الحرية التي تُعد جزءاً من سياسة الأمر الواقع (in vivo) انتشاراً لم تعهده في سنوات التسعينيات -رغم أن قانون تعميم استعمال اللغة الوطنية المسعى غالباً قانون التعريب كان قد أُصدر ابتداء من سنة 1991 ثمّ جُمِد سنة 1992 ثمّ فُعِل سنة 1998. سوف يتبين لنا أن أغلبية اللافتات الجديدة مكتوبة بالأحرف اللاتينية، تعنتاً ومخالفة للقوانين المنصوص عليها، وأن أسماء المحلات مستوحاة من عوالم ثقافية مختلفة مجسدة في ذلك التأثير المزيج للثقافة الأجنبية التي تُروجها وسائل الإعلام والتي عرفت تطوراً غير مسبق، وهذا ليس بفضل انفتاح البلاد على اقتصاد السوق فقط، بل -أيضاً- بإقبال الجزائريين المذهل على مشاهدة القنوات عبر الأقمار الصناعية.

وقد اخترنا عينة ضمن القائمة الطويلة التي جمعناها تمثل نوعاً ما تأثير هذه النماذج الثقافية، ونذكر على سبيل المثال: المأكولات اللذيذة "ماك كيكى" (Mac Kiki)، "ماك بورغر" (Mac Burger)، وغيرها مثل: "تيك بورغر" (Tic Burger)، دون أن ننسى محل البيتزا "التيتانيك" (Le Titanic)، والذي يحيل بكل وضوح إلى الفيلم الشهير وهذا بعرض صورة الممثل "ليوناردو دي كابريو" (Leonardo Di Caprio). هل من الضروري ذكر كل هذه اللافتات المتضمنة أسماء العلامات التجارية الكبرى المعروفة عالمياً مثل: "فيليبس" (Philips)، "كوكا كولا" (Coca Cola)، وغيرها مثل: "وايرلبول" (Whirlpool)، وهي ليست حاضرة بأسمائها فقط، وإنما -أيضاً- بشعاراتها التي تشمل جميع الأشكال لإثارة انتباه المستهلكين العاصمين والجزائريين.

لا يخص هذا الوضع في الواقع الجزائر العاصمة فقط، ولكن يبدو أنه تفتش في مدننا كافة، وفي شمال البلاد خاصة، وهو نتاج عن توجهين اثنين يتسم بهما المجال الحضري بلغاته المتعددة، إذ يشير إلى استمرار آثار تنافس المتكلمين من خلال اللغات المستعملة والحروف المختارة باللاتينية والعربية والأمازيغية (نقصد هنا حروف التيفيناغ أو الحروف الليبية)، إن استعمال الأحرف في تزايد أو تناقص وذلك حسب الفترة والعوامل المختلفة والمتنوعة، وبذلك

تشير أكبر مساحة أو أصغرهما من فضاء المدينة إلى أن التوتر بين السياسات المقررة بعيداً عن الواقع (in vitro) وبين حلول الواقع المبتكرة من قبل سكان العاصمة (in vivo) لا يزال قائماً ويترجم واقع الرهانات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي تُشكل الحقل الرمزي في الجزائر. وهو يدل بشكل متناقض على ترسخ الوجوه الثقافية السائدة التي تفسر خيارات التجار، فهم يسايرون الزمن، ويستجيبون لمتطلبات الشعب المحكوم بشكل متزايد بالدعاية الخارجية التي يُحبذون أن تكون محلية، فهو توجه نحو تقليد يُخل بالتعددية والتنوع.

وهذا التنوع الذي يُضفي رونقاً على مشهدنا اللغوي الحضري (امتزاج تحدث عنه جون لويس كلافي) في تقلص متزايد ناتج عن سلطة العولمة وهيمنة نموذج الاستهلاك الغربي. وهنا لا يمكن الحديث عن التناقضات بين ما هو بعيد عن الواقع (in vitro) وبين ما هو من الواقع (in vivo)، وإنما هو إعلان عن إخفاق مؤسف لقانون لم يستطع الثبات أمام سياسة أخرى غير رسمية لم تستطع مقاومة منطق اقتصاد السوق الذي لا تُعيقه الأفكار الإيديولوجية، ولكن يسعى إلى الريح ولا شيء سواه.

اتخذت الجزائر قرار الانفتاح على السوق العالمية دون أي احتياطات مسبقة، فجدران عاصمتها الجزائر تعكس الآثار البارزة، لأننا نمُر في كل يوم بصفتنا مواطنين فنشاهد كتابات مُقلدة لا تحصى لعالم مُتخيّل ليس بالضرورة هو العالم الذي نرغب أن يكون عالمنا، إنمّا هو مثل الفيلم الذي يُجبرنا على مشاهدته وإعادة مشاهدته.

وهو عالم مُتخيّل نسجته أحرف ورسومات، ووجوه ليست إلا "وجوهاً تعني أشياء أخرى"¹¹ وهذا ما قاله الروائي الإيطالي "إيطالو كالفينو" (Italo Calvino) وأشار إليه زميلنا "أ. ميلي" (A. Millet) في مقاله حول مدينة غرنوبل.

لكن ما الذي يعنيه إذن هذا العالم المُتخيّل؟ ما هي الوظائف التي أسندت إليه؟ وكيف تتجلى هذه الوظائف؟

تكمن الوظيفة الأساسية للافتات -قبل كل شيء- في إعلام المواطن المدني الذي يجوب شوارع مدينته، وهي أساس وجود المحل الذي تشير إليه بأساليب مختلفة تكمن في إمكانية جمع وحدة كتابية (graphème) للغة معينة مع رسم، وصورة فوتوغرافية، ورمز بياني وغيرهم.

¹¹ Voir Millet, A. (1998). *La ville : un espace socio-sémiotique*. In Des écrits dans la ville. Sociolinguistique d'écrits urbains : l'exemple de Grenoble- Paris, L'Harmattan, p. 25.

تسمية الأماكن واللغة: جولة داخل التعدد اللغوي للجزائر...

غالبية اللافتات التي عايناها تميل إلى الرسالة الشفوية، أي المكونة حصراً من جملة، ومن مجموعة كلمات -وهو الشكل الأكثر انتشاراً-، وأحيانا من كلمة واحدة. وهنا نقدم للقراء قائمة لأسماء محلات مختارة عشوائيا من مدونتنا، ويتعلق الأمر بنهج سيدي يحي بحيدرة، الحي الذي عرف في الآونة الأخيرة تطوراً مدهشاً أفقده هدوء الحي ليُصبح أحد الأحياء التجارية الأكثر شهرة في العاصمة.

وأغلبية هذه اللافتات أحادية اللغة (بالفرنسية)، وبعضها مزدوج اللغة (عربي، فرنسي) و(عربي، انجليزي) ونادراً ما يكون هذا الأخير.

باست ماركت، وهو مجمع كبير (Best market)

تنظيف ملابس (Blanchisserie)

قصر الزهور (Palais des fleurs)

قصابة سيدي يحي (Boucherie Sidi Yahia)

تبغ وجرائد (Tabacs et Journaux)

خضبر وفواكه (Fruits et légumes)

وهذه الأسماء لا يعترها أي غموض، والمعلومة هي التي تهتم، فتسمية المحل بقصر الزهور يرجع إلى انطباع التاجر الذي يرى في محله قصراً، فيكون بذلك قد أضاف إلى المعلومة الأولى مؤشراً إضافياً يعطي من خلاله هوية خاصة وفريدة لمحله، إنه ليس أي محل، إنه قصر الزهور الذي لا مثيل له! خيبة أملنا كانت بقدر آمالنا، فقد كانت زهوراً اصطناعية!

نعم! البحث عن الإبداع أمر محمود، شرط أن يحترم هذا الإبداعُ الزيونَ -ولو قليلاً- الذي ربما لا يُحبذ الزهور الاصطناعية، ولكن على اللافتة أن تُعبر عن التوافق بيننا وبين التاجر. كما يجب عليها أن تلتفت انتباهنا دون أن تخون ثقتنا، لكن هل ممكن أن نُفكر في ذلك في هذا العالم التجاري الجشع؟

وإضافة إلى ذلك، يمكن أن تكون اللافتة غريبة تماماً، أي لا شيء يدل على طبيعة هذه التجارة في عنوانها، وستنجح على الأقل في شد انتباهنا، وندفع الباب للتعرف على ما في المحل، إنه محل فاخر لملايس نسائية من آخر صيحات الموضة، ولكن اللافتة؟ فالأمثلة بالآلاف، وهي مكتوبة كما جمعناها من شارع آخر في حيدرة: "غراساكي" (Graçaki).

ما عسانا أن نقول في نهاية هذه الجولة السريعة بين جدران ومحلات العاصمة؟ لا نعتقد أننا استطعنا إعطاء لمحة شاملة حول العديد من الحالات (هذا ما يمكن تأكيده) التي تُشكل المشهد العاصمي، ولكن على الأقل نأمل أننا استطعنا أن نشد انتباهكم، وأن نثير فيكم الرغبة في رفع بصركم والنظر عن قرب إلى ما تنطق به اللافتات في مدينتكم. ستكتشفون إذن، عالماً غريباً مُكوناً من كائنات غريبة ستلاحقكم في ليااليكم البيضاء بصفتكم مدنيين مرهقين بكرب أليم جراء ندرة المياه التي تصيب مدننا المكتظة، لكن غدا سيكون يوماً آخر!

ترجمة منصور مرقومة وصارة هدية
تدقيق لغوي زكرياء بسباسي

بيبليوغرافيا

Calvet, L.-J. (1994). *Les voix de la ville. Introduction à la sociolinguistique urbaine*. Paris, Payot.

Millet, A. (1998). La ville : un espace socio-sémiotique. In *Des écrits dans la ville. Sociolinguistique d'écrits urbains : l'exemple de Grenoble*, Paris, L'Harmattan.

Présentation du numéro *Naqd* sur les Dés ORDRES Urbains, (16), 2002, Alger.

Alger Plurilingue in *Plurilinguismes* (12), 1996, Paris.